النثر (•)

في القرنين الثاني والثالث للهجرة

أيها السادة:

بين دوردان وأستاذه

يقول جوردان "Jourdan" السوق لأستاذه الفيلسوف في قصة من قصص موليير: إني أريد أن ألقي إليك سرًا. فيقول له أستاذه: هات. فيقول: إني أريد أن أكتب بطاقة لسيدة جميلة، وأريد أن أستعين بك عليها.

فيقول له أستاذه: لك ذلك، هل تريد شعرًا؟ فيقول: كلا... هل تريد نثرًا؟ فيقول: كلا.

فيقول له أستاذه: ومع ذلك فلا بد أن تختار إما شعرًا وإما نثرًا، لأن الكلام لا يمكن أن يكون إلا شعرًا أو نثرًا؛ فيقول له صاحبه: وإذن فعندما أطلب إلى خادمي أن يناولني قلنسوتي أو حذائي، لأنا أقول النثر؟ فيقول له: نعم.

النثر والنظم وإنصارهما

فيقول: يا للعجب! فأنا أتكلم النثر منذ أربعين سنة، ولا أدري؟ أخشى ايها السادة أن نكون جميعا كما كان جوردان هذا، نفهم النثر على نحو ما كان يفهمه جوردان، من أنه كل كلام لم يتقيد بالنظم والقافية.

(•) ألقيت بقاعة الجمعية الجغرافية بتاريخ ٢٠ ديسمبر ١٩٣٠.

وعلى هذا جرى الأدباء ومؤرخو الأدب العربي فقسموا الكلام إلى منظوم ومنثور، وزعموا أن الكلام المنثور هو ما لم يتقيد بالوزن والقافية، وأن المنظوم هو ما تقيد بالوزن والقافية. ونشأ عن هذا أنهم انقسموا إلى قسمين، فأما الشعراء وأنصارهم فزعموا أن الشعر خير من النثر؛ لأن الشعر يكلف صاحبه، عندما يتكلفه: القافية والوزن. ثم مضوا إلى أبعد من هذا، رأوا أن الشعر أفضل من النثر لأنه ديوان العرب، فيه قيدت مفاخرهم، وإليه يرجع الفضل في تخليد ما لهم من فضائل قديمة.

ثم مضوا إلى أكثر من هذا في أنه أقل، لأن الشعر يلائم الموسيقى، ثم لأنه موضوع الغناء، فهو مصدر اللذة الغنائية والموسيقية معًا.

ولم يقصر أنصار النثر في الاحتجاج لفنهم، فقالوا: لا ننكر ما للشعر من فضل ومزية، ولكن نرى أن النثر أفضل منه لأنه يفي بضروريات الحياة، ولأن الشعر لا يكون إلا فنًا من فنون اللهو. ورأوا أن النثر لغة السياسة ولغة الدين ولغة العلم. وإذن فقد يكون الشعر ذات مكانة، ولكن النثر أشد مساسًا بحاجات الإنسان، وأشد اتصالاً بما يتجه إليه. وإذن فالنثر أفضل من الشعر.

وزادوا على هذا أن الشاعر ينشد واقفًا، على حين أن الناثر يستطيع أن يتكلم واقفًا وجالسًا.

وعلى هذا النحو لا تكادون تقرءون كتابًا من كتب الأدب الضخمة، حتى تجدوا خلافًا بن الشعراء والكتاب، وأنصار الشعراء وأنصار الكتّاب، ومصدر هذا أن الذين يدرسون الأدب العربي لا يقدرون مكانة الشعر ومكانة النثر من الحياة بقدر ما ينبغي.

الشعر والنثر وأيهما أسبق

فالشعر ضرورة من ضرورات الحياة في طور من أطوارها، فإذا انقضى هذا الطور أصبح الشعر عاجزًا عن أن يقوم بشيء من ذلك، وأصبح النثر خليفته يصور هذه الأشياء الجديدة.

والشعر الذي كان ضرورة أولا يصبح في الطور الثاني ضربًا من الترف والزينة، والحياة لا تستطيع أن تستغني عن كليهما.

وكذلك عندما نلاحظ تاريخ الأمم التي كانت لها حياة أدبية، وكان لها شعر ونثر، نلاحظ أن حياتها الأدبية قد بدأت شعرًا، وأن الشعر وُجد فيها قبل أن يوجد النثر بزمن طويل.

وأنا إذا قلت النثر فلا أعني ذلك النثر الذي يفهمه جوردان، إنما أقصد النثر الذي يفهمه الأديب. فالمم التي لها أدب. قبل أن تعبر عن عواطفها وميولها بالنثر، عبرت عن لذتها وآلامها بالشعر. وكان الشعر هو لسانها الأدبي. فلمَّا تطورت هذه الأمم، وارتقى عقلها، وتغيرت نظمها السياسية والاجتماعية، واتصلت بغيرها من الشعوب، نشأ عن ذلك أن وجدت فيها أفكار وآراء لم توجد عندها من قبل.

واحتاجت أن تنظم هذه الأفكار والآراء، وأن تصورها وتعلنها، فعجز الشعر عن أن يعبر عنها، واضطرت أن تعبر عن هذه الحاجات بأوسع من الشعر فعبرت عنها بالنثر.

لذلك عندما نلاحظ تاريخ الأمم كالأمة اليونانية مثلاً، نراها أولاً شاعرة، تنشئ الشعر قصيصًا ثم غنائيًا ثم تمثيليًا. ولا ينشأ النثر عندها إلا في وقت الاضطراب السياسي، الذي تتغير فيه نظم الحكم والحياة الاجتماعية. وتشتد الصلة بين اليونان والأمم الشرقية والغربية المختلفة وتنشأ أفكار جديدة، منها السياسي، ومنها الفلسفي، ومنها الديني؛ هنالك تضطر إلى أن تعبر عن هذا كله، ويعجز الشعر عن أن يسعه، فينشأ النثر. ومثل هذا نجده عند الأمة الرومانية.

العرب قبل الإسلام وبعده

وهذا هو الذي نجده عند الأمة العربية في العصر الأول قبل الإسلام كانت أمة شعر، لها حياتها الاجتماعية والسياسية الخاصة، تعتمد في هذين النوعين من الحياة على العاطفة والشعور أكثر من اعتمادها على الحكمة الروية، تندفع بحكم هذا الشعور إلى الحرب أو السلم أو الخصومة، أو إلى أي ناحية من نواحي الحياة الجاهلية.

فإذا وصلت من ذلك إلى ما تريد، وتأثرت بهذه المؤثرات نطقت بهذا شعرًا. ولما لم تكن شديدة الاتصال بغيرها من الشعوب، ولم تكن تعرف كثيرًا عما عنده هذه الشعوب، ظلت على حالتها هذه.

فلما جاء الإسلام تغر الحياة العربية تغيرًا تامًا: تقوض النظام السياسي، وحل محل النظام القديم نظام جديد، يعتمد على وحدة الأمة العربية وإخضاع الأمم الأجنبية، وإدماجها في الإسلام.

ونشأت عن هذه الحياة نظم للحكم لم تكن معروفة من قبل: وجدت الخلافة، وتغيرت الحياة الاجتماعية، وتغير نظام الزواج والطلاق، وعلاقة الجماعات.

ثم كانت الفتوح، واتصل العرب بالأمم الأخرى اتصالا أخذ يشتد ويقوى حتى أصبح اختلاطًا، ثم امتزاجًا، ونشأ عنه أن أطلع العرب على ما كان لهذه الأمم من آراء وأفكار، وديانات وعلوم وفلسفة، وأخذوا منه قليلا قليلا بحظوظ تقوى وتضعف، ونشأ عن هذا أن تغيرت حياتهم العقلية والشعورية والعاطفية والاجتماعية.

فبعد أن كانوا في عصرهم الأول متأثرين بالحس والشعور، أخذوا في هذا العصر الجديد يفكرون ويروون، وظهرت أمامهم مسائل ومشكلات جعلتهم يفكرون ويتلمسون الحلول لتلك المسائل المعقدة.

فنشأ عن هذا كله أن تغيرت الحياة، وتغيرت موضوعات التفكير، واستلزم ذلك أن تتغير العبارة التي يعبرون بها عما في أنفسهم، ونشأ لهم لسان جديد لم يكن لهم من قبل؛ وهو النثر الذي يعبر عن المعاني بدون القيود الشعرية.

العصر الجاهلي والنثر الفني

وإذن فتقسيم الكلام، إلى نظم ونثر، تقسيم ساذج بسيط يمكن الاعتماد عليه إذا بسطنا الأشياء. ولكنكم تعلمون أن الأديب، والذي يدرس تاريخ الأدب إنما يعني بالكلام عند ما يتجاوز هذا النحو من الحديث العادي، وأداء الحاجات العاجلة، إلى التفكير من جهة، والجمال من جهة أخرى.

فالأحاديث العادية، ولغة التخاطب، وهذه العبارات التي يتبادلها الناس، لا تعنينا في درس الأدب العربي وتاريخه، إذ أن قيمتها لا تظهر إلا حينما يكون لها حظ خاص في جمال أو لذة فنية خاصة.

والواقع أننا لا نستطيع بحال من الأحوال- مهما نحرص على أن نكون من أنصار العصر الجاهلي وعشاقه- أن نطمئن إلى أن هذا العصر كان له نثر فني. والذي ليس فيك شك أن أقدم نص يمكن أن نطمئن إليه هو القرآن. ولكنكم تعلمون أن القرآن ليس نثرًا، كما أنه ليس شعرًا، إنما هو قرآن، ولا يمكن أن يسمي بغير هذا الاسم. ليس شعرًا، وهذا واضح، فهو لم يتقيد بقيود الشعر. وليس نثرًا، لأنه مقيد بقيود خاصة به، لا توجد في غيره، وهي هذه القيود التي يتصل بعضها بأواخر الآيات، وبعضها بتلك النغمة الموسيقية الخاصة. فهو ليس شعرًا ولا نثرًا، ولكنه (كتابٌ أحكمْ آياتهُ ثم فصلتْ منْ لدُنْ حكيم خبير). فلسنا نستطيع أن نقول إنه نثر. كما نص هو على أنه ليس شعرًا.

القرآن بين النثر والشعر

ولكنكم تعلمون أن القرآن ليس نثرًا، كما أنه ليس شعرًا، إنما هو قرآن، ولا يمكن أن يسمى بغير هذا الأسم. ليس شعرًا، وهذا واضحن فهو لم يتقيد بقيود الشعر. وليس نثرًا، لأ نه مقيد بقيود خاصة به، لا توجد في غيره، وهي هذه القيود التي يتصل بعضها بأواخر الآيات، وبعضها بتلك النغمة الموسيقية الخاصة. فهو ليس شعرًا ولا نثرًا، ولكنه **(كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)**. فلسنا نستطيع أن نقول إنه نثر. كما نص هو على أنه ليس شعرًا.

كان وحيدًا في بابه، لم يكن قبله، ولم يكن بعده مثله. ولم يحاول أحد أن يأتي بمثله. وتحدي الناس أن يحاكوه، وأنذرهم أن لن يجدوا إلى ذلك سبيلا.

وأراح الخطباء والكتاب أنفسهم من هذه المحاولة التي كانت في نفسه مستحيلة، والتي كانت تعد مروقًا وخروجًا على الدين.

وأنتم تعلمون أن أهم الأسباب للإنتاج الأدبي إنما هي المحاكاة، فإذا قال الشاعر البليغ قصيدة وأعجب الناس بها فمنهم من يرويها، ومنهم من لا يكتفي بهذه اللذة، بل يحاول أن يحاكيها ويأتي بأمثالها. وعلى هذا النحو ينتج الشعر، ويكون للشعراء تلاميذ ومقلدون.

فمن هذا الناحية نستطيع أن نطمئن إلى أن القرآن لم يجد له مقلدًا ولم يجد له تلميذًا، وهو وحيد في بابه لم يسبق ولم يحلق بما يشبهه.

وإذن فمن الحق أن نضع القرآن في مقامه الخاص الذي لا يصح أن يقاس به شيء آخر، وأن نبحث عن النثر العربي.

نثر العصر الجاهلي

وإذن فالعصر الجاهلي لم يكن له نثر بالمعنى الذي حددته، ومع ذلك فقد كان له نثر خاص، لم يصل إلينا الضعف الذاكرة، وخلوه من الوزن،

هذا النثر هو الخطابة، وليس من شك- إذا فهمنا حياة العرب الجاهلية- أن ما كان يقع بينها من خصومات كان يحتاج إلى كلام غير منظوم.

فقد كان الخطباء والمحامون ينطقون بلسان القبائل ويحرصون على أن يعجبوا السامعين لا ليقنعوهم فحسب، بل ليثيروا فيهم لذة فنية، ومتى وجدت هذه الفكرة فقد وجد الجمال الفني.

والخطباء كانوا يقنعون ويحاجّون معتمدين في ذلك على خلب السامعين. ولكن هذه الخطابة لم يرد إلينا منها شيء نثق به. وربما كان من السهل أن نتصور هذه الخطابة تصورًا

مقاربًا ليس دقيقًا عند ما نقرأ كتب السير وما فيها من خطابة وأحاديث، كل هذه تعطينا فكرة عن النثر الجاهلي.

النثر في صدر الإسلام

في صدر الإسلام، ما الذي كان يوجد من النثر؟ طبعًا قوى فن الخطاب لأسباب الحوار ومحاولة الإقناع، سواء كان موضوعه الدين أو السياسة أو الخصومات المختلفة. وبالطبع احتاج المسلمون إلى أن يكتبوا، كتب النبيّ رسائل، كوتب الخلفاء من بعده، ولكن هذه الرسائل التي كانت تكتب كانت مختصرة لا يقصد منها إلا مجرد الأداء، في غير تفنن أو إثارة لجمال فني خاص.

ومن هنا كانت هذه الرسائل قصيرة، جملها صغيرة توشك أن تكون رموزًا، ليس فيها هذا التفصيل أو المحاولات الفنية التي نجدها عند الشعراء، من حيث الألفاظ.

النثر بعد منتصف القرن الأول

ولكن في منتصف القرن الأول للهجرة كانت الفتوح قد تقدمت كثيرًا، وان العرب قد بدءوا يتصلون بغيرهم من الأمم، وكانت المشكلات السياسية والاجتماعية قد كثرت حتى هدمت نظام الخلافة وأقامت نظام الملك، وان هذا كله قد أنشأ الأحزاب السياسية.

إلى جانب هذا التطور نشأت أشياء أخرى من الناحية العقلية: فأسلم كثر من الأمم الأجنبية، وتعلموا العربية ودرسوا الدين الجديد، واختلط العرب بهم وأخذوا نظمهم السياسية والاجتماعية والأدبية، واتصل المسلمون بغيرهم من الجهة الدينية، ونشأت العلاقات بين أنصار الديانات الأخرى وبين المسلمين، وقامت بينهم محاجّات، وأخذ العرب يتحضرون، أي يقيمون حضارة جديدة على أساس الحضارة القديمة. ومعني ذلك أن هذا العقل العربي، الذي كان ساذجًا في جاهليته، وجد أمامه في هذا العصر الجديد مشكلات حقيقية، منها ما يمس الدين والحضارة، ومنها ما يمس الحياة المادية والاجتماعية.

ثم وجد أمامه مسائل فلسفية أثارها الفلاسفة مع من اتصل بهم، عند ما عرف العرب بقايا فلاسفة الفرس واليونان.

لم يكن بدّ للعربي من أن يفكر، ولم يكن له بد من أن يشترك في التعبير عن هذه المسائل بلغته؛ كما كان غيره من الأمم يعبر عنها بلغته، وكان لابد له أن يناقش في مسائل السياسة والدين.

ومن أهم الصفات التي تتصف بها الأمم– عند ما تبدأ حياة حضرية بعد حياة بدوية– أن تروي قديمها، وأن تظهر لأبنائها ولغيرها من الأمم أنها وإن كانت حديثة عهد بالحضارة، فليست أقل من الأمم الأخرى مجدًا ومكانة.

وإذن، اضطرت العرب أن يكون لها تاريخ، إذ لابد للأمة أن تعبر عن تاريخها، كما عبر الفرس واليونان عن تاريخهم.

ولا يستطيع الشعر بحال أن يعبر عن هذه المعاني الجديدة، وأن يبسط الرأي السياسي، وأن يبسط الرأي الديني والفلسفي، وأن يقص التاريخ قصصا واسعًا مفصلاً.

ولم يكن بد من الانصراف إلى النثر للمحاورة والمناظرة، ووصف التاريخ والعلوم والتحدث عنها بسهولة، ففي هذا العصر نستطيع أن نقول: إن النثر قد وجدت له الأسباب التي منته من أن يقوي من جهة، وأن تنشأ له فنون جديدة من جهة أخرى.

أما الذي قوى منه، فالخطابة التي كانت موجودة في الجاهلية، واشتدت أسبابها ودواعيها في الإسلام.

وأما الذي نشأ بعد أن لم يكن فهو هذه الفنون التي تعبر عن هذه المعاني: عن التاريخ والمناظرات العلمية والفلسفية والدينية.

وإذن فالنثر العربي الذي ليس لغة التخاطب، ولا الأحاديث العادية، والذي لا يعبر عن عاطفة أو شعور من حيث هي عاطفة أو شعور، بل من حيث هي صورة عامة يظهر فيها نتيجة التفكير، هذا النثر أثر من آثار الحياة الإسلامية الجديدة، ظهر في الإسلام ولم يكن موجودًا.

هذه الأسباب التي دعت إلى وجوده أسباب طبيعية، لأنه أمة لم تكن أعارت العرب النثر، بل هي الظروف التي أوجدته. وهو فن دعت إليه حاجة الحياة العربية؛ ولذلك يجب أن ننزع من نفوسنا أن العرب استعارت النثر من غيرها من الأمم.

اثر الفرس واليونان في النثر العربي

فالذين يزعمون أن الأمة العربية قد أخذت نثرها عن الفرس أو اليونان مسرفون. وليس معنى هذا أن هذا النثر نشأ بعيدًا عن هؤلاء، بل كان عربي النشأة، ولكنه تأثر بهؤلاء، وتطور بفضل اتصال العرب بتلك الأمم. أسلمت هذه الأمم الأجنبية، وتعلم كثيرون اللغة العربية وكتبوا بها فلا نستطيع أن نقول إن هؤلاء في كتابتهم العربية قد تجردوا من وطنيتهم، وإنما لذي يمكن أن يقال: أنه عند ما تعلم هذا اليوناني أو الفارسي العربية أدخل فيها ما ورثه عن قوميته، كما أنه تأثر بما فيها من ثقافة عربية خالصة. فهو تعلم اللغة بكل ما فيها فتأثر به وأضافه إلى تراثه الوطني، فنشأ عنهما مزاج لا نستطيع أن نقول إنه عربي خالص، أو فارسي خالص، أو يوناني خالص.

أي العنصرين كان أقوى تأثيرًا في النثر، الفرس أم اليونان؟

أكثر المستشرقين يميلون إلى أن تأثير الفرس أقوى من تأثير اليونان، ودليلهم واضح، فأكثر الذين كتبوا نثرًا في الإسلام، سواء في عصر الأمويين أو في عصر العباسي، من الموالي، وهؤلاء من الفرس.

وإذن فيجب أن يكون هؤلاء قد أثروا في النثر بثقافتهم الفارسية. وكيف نستطيع أن نشك في هذا وزعيم الكتاب "ابن المقفع" فارس.

ولكنّ هناك قومًا آخرين– وأنا من هؤلاء– يفكرون في أن التأثير اليوناني أقوى من التأثير الفارسي، برغم أن كثرة الكتاب من الفرس.

وذلك لأن الثقافة اليونانية كانت قديمة العهد في هذه البلاد منذ أيام الإسكندر، في القرن الثالث قبل الميلاد.

ولم ينته القرن الثاني قبل الميلاد حتى كانت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية للشرق الأدنى. ولم يكد يتقدم التاريخ المسيحي حتى كانت كل بلاد الشرق الأدنى في مصر وسوريا والعراق قد انبثت فيها مدارس يونانية، تعلم الفلسفة والأدب وعلوم اليونان.

وعند ما جاء الإسلام، وخرج العرب فاتحين صادفوا تلك البلاد، وقد انبثت فيها هذه المدارس اليونانية، وقد تركت هذه المدارس في عقول المصريين والشاميين والجزريين آثارًا لا يمكن أن تمحى إلا مع الزمن.

هذه الثقافة اليونانية، التي استمرت في الشرق تسعة قرون، لم يقف أمرها على الشام والعراق والجزيرة ومصر، بل هجمت على البلاد الفارسية نفسها منذ عهد البطالسة في مصر والسلوقيين في آسيا، وأخذت الثقافة اليونانية تنبث في الفرس حتى وصلت إلى أقصى الشرق.

وفي عهد الإمبراطورية الرومانية اشتدت الصلة بين اليونان والفرس، وتعمقت الثقافة اليونانية في بلاد الفرس.

وفي أواخر هذا العصر، قبيل ظهور الإسلام- عند ما ظهرت المسيحية وأصبحت الديانة الرسمية، وأغلقت المعابد الوثنية- هاجرت الثقافة اليونانية إلى بلاد الفرس، فوجدت منها حماية ونصرًا، ولقيت من ملوك الفرس كل تعضيد.

هذا العقل الفارسي كان شديد التأثر بالثقافة اليونانية إلى حد أن "ابن المقفع" زعيم كتّب الفرس والعرب كان عظيم الحظ من الثقافة اليونانية، حتى قيل إنه ترجم آثار اليونان.

ونحن نعلم أن لليونان أدبًا فيه شعر وفيه نثر. وأن أدب هؤلاء اليونان كان يدرس في الإسكندرية وغزة والرها وأنطاكية. وكان الذين يختلفون إلى هذه المدارس يونانيين وآراميين وساميين ومصريين وفرسًا، وكل هذا قبل أن تستقر الثقافة اليونانية في فارس.

ونعلم أن الثقافة الفارسية محدودة، فإذا كان يرى أن قد كان للفرس أدب، فالواقع أن هذا الأدب في عصر اتصال الفرس بالعرب لم يكن عظيم الخطر والذي ترجم إلى الآداب العربية من الفارسية قليل مع كثرة ما ترجم من الآداب اليونانية.

هذه الآداب الفارسية لم تكن في حقيقة الأمر عظيمة الخطر، وهي تنحصر في كتاب كليلة ودمنة، وكتاب الأدب الكبير، وكتاب الأدب الصغير، والحكم التي يشتمل عليها شعر بعض الشعراء كأبي العتاهية، وبعض الكتب السياسية.

هذا هو كل ما يمكن أن يقال إنه أدب فارس وصل إلى العرب في القرنين الثاني والثالث، بينما وصل إلى العرب واليونان: الفلسفة، ونظم مختلفة في التفكير، سترون أثرها في النحو والبيان، وغيرهما من الفنون.

فإذا أردت أن أقول بصراحة: ما الذي استفاده العرب والفرس، الواحدة من الأخرى؟ فرأي أن الفرس أخذوا من العرب أكثر مما أعطوهم.

وحسبنا أن نعلم أن الأدب الفارسي الحي إنما نشأ بعد أن اتصل الفرس بالعرب وبعد أن تعلموا العربية.

ولم يعط الفرس النثر العربي من التأثير بمقدار ما يتصوره المستشرقون، و ما كان يراه الشعوبية من الفرس الذين قالوا: إن العرب مدينة للفرس بكل شيء.

ومن غير شك أن العرب مدينون للفرس بالكثير من الماديات، والنظم السياسية وغيرها. وأما في الأدب فأ،ا مقتصد جدًا في تقدير هذا الدين. وفي رأي أن العرب مدينة في أدبها للأمة اليونانية بشيء غير قليل.

هذا إلى أن أكثر الكتاب الذين بدءوا يكتبون النثر ليس من الحق أنهم كانوا جميعًا من الفرس. وربما كان من الموثوق به أن كثيرين كانوا من الشام والجزيرة ومصر. فهم إما يونانيون أو ساميون، ثقافتهم يونانية. فليس صحيحًا أن أكثر الذين كتبوا كانوا فرسًا، وليس من شك أن التأثير اليوناني أقوى من التأثير الفارسي.

النثر العربي الذي لم يتأثر بالفارسية أو اليونانية

هذا النثر العربي، نحب أن نتصور كيف وتى تطور أو اتصل بهذه الثقافات الأجنبية؟

وأحب أن اسأل: أليس يوجد نثر عربي غير الخطابة لم يتأثر بالفارسية أو اليونانية؟

فإذا استطعنا أن نظفر بهذا النثر، كان من السهل أن نرى الفرق بينه وبين النثر الذي تأثر بالثقافات الأجنبية.

ووجود هذا النثر ليس بالشيء الصعب، ويكفي أن نقرأ النقائض، فسنجد فيها إشارة إلى أيام العرب، يضطر المفسرون والشراح إلى تفسيرها، وأن يقصوا علينا أخبار هذه الأيام التي كان العرب يقولون إنها وقعت بسبب داحس والغبراء، وفي جرب البسوس، وفي يوم الكلاب، وما كان بين عامر وتميم، وايام الفجار وغيرها.

كل هذه القصص كانت تروى وتحكى في مدينتي البصرة والكوفة، عندما استقر العرب في هذين المصرين. وكانت الذين يتحدثون بها إلى الناس هم الأعراب.

والذي يظهر في هذه القصص ليست العقلية الفارسية ولا اليونانية، ل العقلية العربية التي تريد أن تثبت للنابهين من القبائل أعظم حظ من الشجاعة في هذه القصص، التي تقص أيام العرب، ومغازي النبي وأوائل الفتح الإسلامي، والفتن الإسلامية أيام عثمان.

هذه هي القصص العربية الخالصة التي ترى فيها النثر العربي الخاص. فإذا استطعنا أن نجد هذا النثر كان من السهل علينا أن نقارن بينه وبين نثر الكتاب الذين ظهروا في القرنين الثاني والثالث، وهم المتصلون بهذا المزاج من الثقافة اليونانية والفارسية.

بين النثر القديم الخاص والنثر المحدث

وأظن أن المقارنة بين هذا النثر العربي ونثر الكتّاب المحدثين تهدينا إلى التأثيرات المختلفة، التي أحدثتها الثقافات المختلفة في النثر العربي.

وربما استطاع مؤرخ الأدب العربي، إذا درس ما للثقافة الفارسية من التأثير وما للثقافة اليونانية من التأثير، أن يستخلص الآثار التي يمكن أن تضاف إلى هذه الثقافة أو تلك.

ليس هذا مستحيلا، بل هو يسير، فربما كان من السهل أن نقول إن هذا الكاتب بعينه أشد تأثرًا بالفارسية، وذلك أشد تأثرًا باليونانية.

فنحن عندما نقارن بين كتابة الكتاب من الموالي الذين كانوا من أصل سريان أو مصري، والذين تأثروا بالثقافة اليونانية، وبين الذين كانوا من أصل فارسي، أزعم أننا عند ما نقارن بينهم سنتبين الطابع اليوناني من الطابع الفارسي. وقد ألقى الأستاذ وليم مارسيه William marçais محاضرة في أصل النثر العربي، وختم محاضرته بهذا السؤال:

إلى أيّ حد كان تأثير اللغة الفارسية فيما كتب ابن المقفع، وفيما ترجم؟ أكانت ترجمته حرفيه يغلب عليها الطابع الفارسي، أم كانت واسعة يغلب عليها الطابع العربي؟

وأظهر الأستاذ أسفه وقال: "إن الجواب على هذا السؤال ليس ميسورًا الآن، لأن الذين يستطيعون الرد على هذا السؤال، هم الذين أتقنوا العربية والفهلوية. ومن سوء الحظ أن الأصول التي ترجم عنها ابن المقفع قد ضاعف".

ومع هذا فأنا استطيع أن أقول إن الجواب على سؤال الأستاذ مارسيه ليس عسيرًا، وإن لم نعرف الأصول. ونستطيع أن نجد الجواب في الأدب الصغير والأدب الكبير.

عند ما تقرءون كتابة ابن المقفع تجدون فيها شيئًا من الالتواء والدوران، ونحس ونحن نقرأ أن الكاتب يجد مشقة في التعبير عن المعاني التي يحسها، ونحس هذا الضعف الذي يكلفه الكاتب للعربية؛ نحسه لا بعقولنا فحسب بل بآذاننا، فنجد ابن المقفع يكلف النحو العربي تكاليف، ربما لم يكن النحو العربي مستعدًا لأن يحتملها.

وابن المقفع، مع أنه زعيم الكتّاب وصاحب الآيات، وواضع المثل الأعلى للكتابة، لم يكن عظيم الحظ من الفصاحة والنحو العربي. والمقارنة بينه وبين ما كتب أصحاب النحو وغيرهم تظهركم على أنه لم يكن أكثر من مستشرق يحسن اللغة العربية الفارسية، ويبذل جهدًا عظيما فيوفق كثيرًا ويخطئ أحيانًا.

النثر (•)

في القرنين الثاني والثالث للهجرة

أيها السادة:

الحياة في مستهل القرن الثاني

عند ما انتهى القرن الأول للهجرة كان فحول الشعراء في العصر الأموي قد أتعبوا أهل العراق والشام بهديرهم الذي لا ينقضي، وبما كان بينهم من المناقضة والهجاء، الذي تناول الأغراض والأخلاق، وتناول فنون الحياة العربية بضروب من القذف والإقذاع.

وكان أهل الخير بالعراق والشام قد سئموا هذا الشعر وملّوه، وكان حالهم في ذلك كحالنا نحن عند ما نقرأ شعر الفرزدق وجرير والأخطل، لا نكاد نمضي فيه ساعة حتى يأخذ منا الملل والسأم الذي لا حد له.

وكان غَزِلو أهل الحجاز قد أصابوا النفوس بشيء من الملل غير قليل؛ لكثرة ما رددوا من النغمات الفاترة التي توهن العزائم. وكان الناس في الشام والعراق والحجاز يشتاقون إلى شيء جديد يلهيهم عن الشعر القديم.

وكانت الثورات والفتن التي اتصلت في أول الإسلام وهدأت أيام معاوية، ثم عادت فاستؤنفت أيام يزيد، ثم هدأت أيام عبد الملك بن مروان؛ كانت هذه الثورات قد كسرت من حدة الشباب العربي، وبعثت في النفس العربية ميلاً ظاهرًا إلى الأناة والتفكير، وكانت كل هذه الظواهر قد مهدت لنضج العقل العربي وحملته على أن يري في نفسه ويفكر فيما كان من الإسلام والفتوح والثورات. وهذا النوع من التفكير دعاه إلى أن يستحدث نوعين من الحياة العقلية،

(•) ألقيت بقاعة الجمعية الجغرافية بتاريخ ٢٧ ديسمبر ١٩٣٠.

كان أول ظهور النثر: أحدهما التاريخ والآخر الفلسفة. ونحن عند ما ندرس تاريخ الأدب العربي في القرن الثاني نجد أن العراق قد شهد نشأة هذين الفنين.

ففي أول اقرن الثاني عرفت المجال القصصية التي كان يجلس فيها القصاص في البصرة، يحدثون الناس عن العرب في الجاهلية، وغزوات النبي وفتوح المسلمين.

وفي هذا الوقت نفسه حين كان القُصاص يتحدثون إلى الناس، كان المتكلمون والفلاسفة ورؤساء الفرق السياسية يتناظرون ويتجادلون في الكوفة ومسجد البصرة، يؤيد كل منهم مذهبه السياسي باللسان بعد أن كان يؤيده بالسيف. وكان الذي يقصه المؤرخون والذي تعلنه المتكلمون يدعو الناس إلى شيء كثير من التفكير والاعتبار والعظة. وفي أثناء هذا كان رجال الدين يحدثون أنفسهم بتدوين ما حفظوه من الحديث وتفسير القرآن والفتيا والأحكام الفقهية المختلفة.

نشأة النثر الفني

فأول القرن الثاني للهجرة هو الذي شهد ظهور الحياة العقلية، وهو الذي شهد مظهر هذه الحياة العربية، وهو نشأة النثر الفني. وبينما نلاحظ أن هذا النثر أخذ يقوى شيئًا فشيئًا، نلاحظ أن الشعر أخذ يضعف قليلا قليلاً. فأما الأخطل فقد توفي في آخر القرن الأول، وأما جرير والفرزدق فقد أردتهما الشيخوخة، وأخذ كل منهما يقول لصاحبه، بالضبط في أول القرن الثاني وفي أيام هشام ابن عبد الملك، ما كان يقول له سنة ٦٧هـ، وفي أوائل خلافة مروان.

والناس يسمعون للفرزدق وجرير مع شيء من الرضا والتغاضي والإذعان، ولكنهم ينصرفون إلى غير الشعراء من هؤلاء الذين أخذوا يجلسون في المساجد يتحدثون غليهم في التاريخ، ويتحدثون إليهم في النحو، ويتحدثون غليهم في العلوم الدينية.

وفي هذا الوقت نفسه أخذت تظهر الظاهر الجديدة التي تدل على أن العرب اتصلوا بالأمم الأخرى، وعرفوا أن لها علومًا خليقة أن تُعرف وتترجم.

فيحدثنا المؤرخون أن عمر بن عبد العزيز تقدم إلى بعض الروم الذين كانوا في قصره والذين تعلموا العربية، ليترجموا له شيئًا من كتب اليونان. فترجموا له كتابًا في الطب ثم وضعه في المصلى، واستخار الله أربعين يومًا إلى أن أخرجه الناس.

وهم يتحدثون أن عمر بن عبد العزيز تقدم إلى ابن جُريج في أن يدوّن من حديث النبي شيئًا، فدوّن كتابًا من حديث النبي، وأذاعه عمر بن عبد العزيز على الناس.

هذا يدلنا على أن النثر وُجد في هذا العصر بألوانه المختلفة، وُجد نثر عربي خالص في التاريخ، وفي مناقشة الفرق المتكلمة. ووُجد نثر عربي خالص في الدين، ثم وجد نثر عربي تشوبه الثقافة الأجنبية، في هذه الكتب التي طلب العرب إلى الروم أو الموالي نقلها إلى العربية.

وفي أثناء هذا كانت هناك ناحية أخرى أخذت العربية تبسط فيها اللغة، وهي ناحية اللغة الإدارية أو الدواوين. وكانت الدواوين تدون بالرومية في الشام ومصر، وبالفارسية في العراق وخراسان.

وكان الذين يقومون على الدواوين موالي، إما من أهل الشام النصارى الذي ينتمون إلى أصل سامي، أو من الروم الذين استعربوا وأتقنوا العربية، وكثير منهم لم يكن يستعرب ولم يكن يحسن أداء العربية.

وان زعيم الكتّاب الذين يشرفون على مالية الدولة رجل يقال له سرجون الرومي، ظلت زعامة الأمور المالية إليه وإلى أسرته، حتى أيام هشام بن عبد الملك.

وان الذين يعملون معه إما من الروم، أو من نصارى الشام الذين استوطنوا الشام من عهد بعيد، وتعلموا من أهل الشام أو الروم علومهم وفنونهم الإدارية.

وفي العراق كان الذين يقومون على دواوين الأمراء إما من الفرس أو الموالي الذين استعربوا.

نقل الديوان إلى العربية

ويختلف المؤرخون في زن نقل الديوان إلى العربية، فمنهم من يزعم أن هذا كان في أيام عبد الملك، ومنهم من يقول إن هذا لم يكن إلا أيام هشام ابن عبد الملك.

أما نقل الديوان في العراق فقد تم أيام الحجاج، وأما نقل الديوان في خراسان فهذا لم يتم إلا في ولاية نصر بن سَيار.

والذين يدرسون تاريخ الأدب العربي لا يفرقون بين كتابة الدواوين وبين كتابة الرسائل. وكانوا يتخذون كتابة الدواوين نموذجًا للكتابة العربة، وربما كان في هذا شيء غر قليل من الخطأ؛ فكتابة الدواوين كانت ضروبًا من الحساب، وهي بكتابة حساب المال أشبه.

وأما الرسائل التي كانت تصدر عن الخلفاء والأمراء فقد كانت في أول أمرها يسيرة سهلة لا تكلُّف فيها، إنما كانت ممثلة للطبيعة البدوية العادية. ولم تظهر الرسائل الفنية، التي تأنق أهلها فيها واتخذوها موضوعًا للعناية الفنية في هذا العصر، إلا في آخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني.

وربما كان عصر هشام هو العصر الذي عني فيه بهذه الرسائل العناية الفنية. فنحن في آخر العهد الأموي نشهد فنونًا منظمة من النثر العلمي، الذي يتناول التاريخ والفلسفة والسياسية وعلوم الدين، ونشهد نثرًا أدبيًا سياسيًا موضوعه هذه الرسائل التي كانت تصدر من الخلفاء والأمراء في المسائل السياسية المختلفة. ولم يكد النثر أيام بني أمية يتجاوز هذا النحو من التبسط، إلى أن كانت الدولة العباسية في أواسط القرن الثاني.

النثر مع الدولة العباسية

عندما قامت الدولة العباسية امتد سلطان النثر شيئًا فشيئًا، واتسعت موضوعاته إلى أكثر مما كانت عليه في آخر العصر الأموي. وكان من أسباب هذا اشتداد الاتصال بين العرب والفرس وغيرهم من الموالي في الشام والجزيرة والعراق. ومن أهم هذه الأسباب تسلط الفرس والموالي، وصول الأمة العربية الإسلامية إلى طور التسوية بين العرب وغيرهم من الموالي في الحقوق.

تسلط الفرس والمالي، ووصول الأمة العربية الإسلامية إلى طور التسوية بين العرب وغيرهم من الموالي في الحقوق.

وفي هذا الوقت استطاع غير العرب أن يصلوا إلى المناصب المختلفة للدولة السياسية والعسكرية والإدارية. واتسعت أمام العقول الأجنبية، من الساميين في الشام والجزيرة، ميادين التفكير والتعبير عن آرائهم وخواطرهم. فنتج عن هذا أن غَنيت اللغة العربية بآراء ومذاهب ما كانت تنتج لو استمرت سياسة بني أمية الذين حصروا كل شيء في العرب.

أخذنا نشهد في أيام العباسيين ظاهرة لم يعرفها الأمويين، وهي سمو الموالي إلى الوزارة والمناصب الكبرى في الجيش والولايات أيضًا. وأخذ هؤلاء الوزراء ينظمون الدولة ويسيطرون على الخلفاء ويسيرون الأمور بما ورثوا عن جنسياتهم المختلفة: يونانية أو آرامية أو فارسية. وأخذوا عند ما يصدرون عن الخلفاء الكتب والرسائل، يصدرونها ممثلة لهذه الجنسيات المختلفة،

ممازجة بينها وبين العربية التي ورثتها اللغة من الدين والعادات القديمة. فتغير اللغة وتغير النثر تغيرًا واضحًا جدًا، نراه في الكتب التي كانت تصدر عن أبي العباس السفاح والمنصور والمهدي.

وفي العصر العباسي عند ما تسلط الأجانب، وتحققت المساواة بينهم وبين العرب، وأصبح سلطانهم قويًا، أحس هؤلاء الأجانب في أنفسهم قوة ساعدتهم على أن يمكنوا لثقافاتهم الأجنبية، كما مكنوا لأنفسهم من المساواة بالعرب الْخُلص، فظهرت فكرة الإكثار من الترجمة والعناية بالثقافات اليونانية والفارسية، ورأين الوزراء ومن يتثل بهم ينقلون إلى العربية ما كان عند الفرس واليونان والسريان من علوم.

كل هذه الحركات التي دعت إلى ترجمة الثقافات الأجنبية، كان من طبيعتها أن تزيد من ثروة اللغة العربية، ولكن كان من طبيعتها أيضًا أن تكلفها مشقة لم تكن تحتملها من قبل.

أخذت في العصر الأموي تعبر عن القصص، والقصص سهل يحتمل فيه التجوز والإهمال؛ وتعبر عن المعاني السياسية والمناظرات بين الفرق والأحزاب.

وفي المناظرات متسع للتهاون وللتبسط في القول. فأما عند ما تتكلف اللغة التعبير عن الفلسفة والعلوم الدقيقة، فالتجوز والتساهل والاتساع ليس من الأشياء التي تحتمل، بل من الأشياء التي تجد فيها اللغة كثيرًا من المشقة.

لم تسهل اللغة، ولم تسمح في أول الأمر باستيعاب هذه المعاني الأجنبية التي كانت تتسع لها اللغات الأجنبية من القرن السادس قبل المسيح إلى ما بعد القرن السابع بعد المسيح، فاضطر المترجمون أن يتكلفوا ضروبًا من التكلف والاعوجاج، وإلى أن يفسدوا تركيب الجمل بإفساد الضمائر، وإلى أن يكثروا من التقديم والتأخير والإيجاز والحذف،،إلى أن يطنبوا فيكون إطنابهم مملا ثقيلا. كل هذا تجدونه في كتابة ابن المقفع.

نشأة النثر العربي والنثرين اليوناني والفرنسي

أريد أن ألفتكم إلى أن نشأة النثر على هذا النحو الذي قدمته ملائمة كل الملاءمة، ومطابقة كل المطابقة لما نالفه في نشأة النثر الذي كان عند الأمم التي كان لها أدب راق، ولست اضرب لذلك إلا مثلين:

قبل أن توجد الآداب العربية، وقبل أن يوجد الشعر العربي، وجدت الآداب اليونانية، وكانت نشأة النثر اليوناني ملائمة للنحو الذي رأينا. فأول ما ظهر النثر اليوناني في القرن

السادس قبل الميلاد، عند ما سئم اليونان شعر الشعراء وقصص القصاص، أخذ اليونان يستعرضون نوعًا جديدا من القصص لا يتقيد بوزن ولا قافية فنشأ النثر اليوناني، وأخذ المؤرخون يحاولون كتابة التاريخ، لا في شعر كما كان في أيام "إيسيدوس". وأخذ الفلاسفة يفكرون فنشأت الفلسفة اليونانية. وكان القرن السادس قبل المسيح مصدر هذه النشأة، حتى إذا كان القرن الخامس قبل الميلاد أخذ النثر يقوي ويشتد ويتناول فنونًا غير القصص والتاريخ.

بعد الأمة العربة بقرون، كانت الآداب الفرنسية في القرون الوسطى شعرًا كلها: قصصيًا ثمن غنائيًا. حتى كانت الحروب الصليبية واتصل الفرنسيون بالشرق، فلما عادوا إلى بلادهم، وأخذوا يحدثون أهلهم عن هذه الرحلات، ظهر النثر الفرنسي. فكتب التاريخ، واتصل الفرنسيون بالعرب في الشرق والأندلس، ووصلت إليهم الفلسفة الإسلامية فأنشأ وصولها إليهم حركة فكرية جعلت لهم فلسفة يدرسونها ويدافعون عنها. وكان هذا مظهرًا آخر من مظاهر النثر عند الفرنسيين، فترون أن نشأة النثر العربي لم تكن بدعًا في الأمم.

ابن المقفع وعبد الحميد

في هذا العصر الذي أحدثكم عنه – القرن الثاني للهجرة– ظهر كاتبان يعتقد العرب والمستشرقون أنهما هما اللذان أسسا النثر العري. وفي هذا كثير من المبالغة، فلم يؤسس النثر العربي كاتب بعينه، وإنما نشأ نشأة طبيعية ملائمة للشعب العربي الإسلامي..

وإنما الكاتبان امتازا امتيازًا ظاهرًا في هذا العصر حتى أصبحا رمزًا لهذا النثر الذي ليس هو لغة التخاطب، ولا اللغة العلمية الطبيعية، ولا اللغة الفلسفية، ولا التاريخية، ولكنه نثر فيه شيء من الفن، وفيه ميل إلى إحداث اللذة عند القارئ فوق العناية بتأدية الفكرة.

هذا الكاتبان هما "ابن المقفع" و"عبد الحميد بن يحي". وقراءتنا لابن المقفع ولعبد الحميد تحقق في أنفسنا فكرة أحب أن تلتفتوا إليها.

نحن تعودنا تقسيم الكلام إلى منظوم ومنثور، وعند ما نقرأ نثر عبد الحميد ونثر ابن المقفع تُلهمنا هذه القراءة فكرة جديدة. فتقسيم الكلام إلى منثور ومنظوم لا يغني كثيرًا من الناحية الأدبية.

ذلك أننا، عند ما نقرأ عبد الحميد وابن المقفع، نجد في أنفسنا من اللذة ممثل ما نجده عند ما نقرأ زيادًا والحجاج وجريرًا والفرزدق والأخطل.

ومع ذلك فنحن عند ما نقرأ عبد الحميد لا نسمعه ولا نراه، ولا نكوّن لأنفسنا فكرة عنه، وإنا نفكر في شيء واحد، هو هذا الكلام الذي عندنا ولا نسمع أنفسنا، بل يقرأ القارئ بعينه، وقلما يقرأ القارئ بصوته، وخصوصًا في هذا العصر.

ونحن عند ما نقرأ عبد الحميد أو ابن المقفع، لا نجد عندهما اللذة الفنية، إذا كنا في طبقة واحدة، أو اشتركنا في ثقافة واحدة.

وإنما يقرؤها منا ذوو الثقافة العالية الساذجة والمتوسطة والبسيطة، وكلنا يجد لذة ومتعة فنية.

بينما تختلف لذتنا فيي قراءة الشعر باختلاف حظوظنا من الثقافة، فليس كل الناس يقرأ جريرًا والفرزدق، أو يتذوق زيادًا والحجاج.

فترون إذاً أن الكلام يمكن أن يقسم إلى ثلاثة أقسام:

أقسام الكلام

أولها– كلام يعتمد على الوزن والقافية والموسيقى، وما يتصل بها من طرق الإنشاء وهو الشعر. لا نجد فيه اللذة لمجردة القراءة بالعين، وإنما نلذ إذا سمعنا له ووعينا موسيقاه.

وكلام آخر تتحقق فيه اللذة الفنية عند ما نسمعه من صاحبه، وعند ما نشهد هذه الحركات والصور، التي يأتيها المتكلم عند ما يخطب خطيب الجمهور، وهو الخطابة.

فالخطابة تلذنا عندما نسمع صوت الخطيب والتشكيلات المختلفة التي شكل بها هذا الصوت، ونرى هذه الحركات المتباينة التي يتحركها الخطيب، مرة بيده ومرة بجسمه. كل هذه تصحب الكلام فتقوى لذته الفنية بحيث لا تكون اللذة واحدة إذا سمعنا الخطيب أو قرأناه.

ونحن نعلم أن من أشهر خطاء الثورة الفرنسية من كان يلهب الجمهور بخطبه التي ربما كان السخف فيها أكثر من الكلام الممتع.

ونوع ثالث نجد اللذة فيه لأننا نقرؤه، لا لأننا نجد فيه وزنًا ولا قافية، ولا لأننا نسمعه من صاحبه ونرى الحركات التي يشكل بها جسمه، ولا لأننا نكوّن لأنفسنا فكرة عن صاحبه، وهو "النثر الفني" أو "الكتابة".

وتتجلى لنا هذه الفكرة عندما نقرأ ما كتب عبد الحميد أو ابن المقفع.

وحينئذ فتقسيم الكلام إلى شعر ونثر ليس يكفي بل يجب أن يقسم الكلام إلى شعر وخطابة وكتابة، وهي التي تعودنا أن نعبر عنها أحيانًا بالنثر الفني في الكتب والرسائل. وربما كان من الحق أن أول من أحدث في نفوسنا لذة الكتابة الفنية في العصر الإسلامي في القرن الثاني للهجرة هو عبد الحميد وابن المقفع.

عود إلى عبد الحميد

أما عبد الحميد فيقال إنه كان في أول عهده معلمًا في الكتاتيب، ينتقل في الأمصار ليعلم الأطفال، وليست جنسيته معروفة بالدقة، وكل ما نعرفه أنه كان مولى لقريش، وأنه من أهل الجزيرة. وكان كاتبًا في ديوان هشام بن عبد الملك، واتصل بمروان بن محمد، ولزمه أيام كان واليًا، وانتقل معه إلى دمشق عندما تولى الخلافة، وظل معه إلى أن قتل؛ ويقال إن عبد الحميد قتل معه.

ويختلف الناس في أن عبد الحميد فراسي الأصل أو من جنسية أخرى، ويقول أبو هلال إنه كان يحسن الفارسية.

وعندما أقرأ عبد الحميد وابن المقفع، الذي لا خلاف في أنه كان فارسيًا، وأقارن بينهما، أرجح أن عبد الحميد كان شديد الاتصال بالثقافة اليونانية، وربما كان عالمًا بلغتها.

ولم يبق لنا من عبد الحميد إلا كتاب كتبه عن مروان بن محمد إلى ابنه ولي العهد؛ عند ما وجهه لقتال الخوار. وكتاب صدر عن مروان بن محمد إلى عماله بالأمصار؛ يأمرهم بمحاربة لعب الشطرنج، لأنه كان قد انتشر فخاف منه على الدين. وكتاب آخر كتبه عبد الحميد إلى الكتاب يوصيهم بطائفة من الوصايا، يوصيهم بأخلاق الكتاب وما يجب عليهم. وكان هذا الكتاب قد صدر من عبد الحميد كنمشور لرجال الديوان.

ولعبد الحميد خاصة لغوية أو فنية، هي التي تحملني على أن أرجح أنه كان شديد الاتصال باليونانية. فهو إذا كتب أسرف في استعمال الحال، والحال معروفة في العربية، وهو لا يقتصد في استعمال الحال، وإنما هو يعتمد عليها في تحديد فكرته وتوضيحها وتقييدها، وتجميل الكلام وإظهار الموسيقى، وربما اتسع الوقت لأعرض لكن "قطعة من رسالته إلى ولي العهد" تمثل استعمال الحال في كتابة عبد الحميد:

من رسالة لعبد الحميد إلى ولي العهد

"وإياك أن تقبل من دوابّهم إلا إناثَ الخيول مهلوبة [١]، فإنها أسرع طلبًا وأنجى مُهربًا، وأبعدُ في اللحوق غاية، وأصبر في معترك الأبطال إقدامًا. وخُدْهم من السلاح بأبدان الدروع ماذيّةَ الحديد [٢]، شاكسة النسج، متقاربة الخَلقَ، متلاحمة المسامير. وأسْوقُ الحديد، مموهة الرُّكب، مُحكمة الطبع، خفيفة الصوغ، وسواعد طبعها هندي، وصوغها فارسي، رقاق المعاطف، بأكف وافية، وعَمل مُحكم. ويَلق [٣] البيض، مذهبة ومجردة، فارسية الصوغ. خالصة الجوهر، سابغة الملبس، وافية الجُنن، مستدير الطبع، مُبهمة السرد، وافية الوزن كتَريك [٤] النعام في الصنعة، مُعلمة بأصناف الحرير، وألوان الصَّبغ؛ فإنها أهيب لعدوهم، وأفتُ لأعضادَ من لقيهم. والمُعْلم مخشي محذور، له بديهة رائعة. معهم السيوف الهندية، وذُكور البيض اليمانية، رقاق الشفرات، مسمومة الشحذ، غير كليلة الحد، مشطبة الضرائب، مُعتدلة الجواهر، صافية الصفائح لم يدخلها وَهن الطبع، ولا عابها أمْت الصوغ، ولا شانها خفة الوزن، ولا فدح حاملها بُور الثقل. قد اشرعوا لُدن القنا، طوال الهوادي [٥]، رُزق الأسنة، مستوية الثعالب [٦]. وميضها متوقد، وشحذها مُتلهب، معاقص عُقدها منحوتة، ووصم أودها مقوم، وأجناسها مختلفة. وكُعوبها جعدة، وعُقدها محبكة. شطبة الأسنان، مُحكمة الجلاء، مموهة الأطراف، مُستحدة الجنبات، دقاق الأطراف. ليس فيها التواء أود، ولا أمت وصمْ، ولا بها مسقط عيب، ولا عنه وُقوع أمينة. مستحقبي كنائن النبل، وقسى التشوحط والنبع [٧]. أعرابية التعقيب رُومية النُّصول. فإنها أبلغ في الغاية، وأنفذ في الدروع. وأشك في الحديد. سامطين [٨] حقائبهم على مُتون خيولهم، مستخفين على الآلة والأمتعة، إلا ما لا غناء بهم عنه"[٩].

---

(١) المهلوبة: المستأصلة شعر الذنب.

(٢) ماذية الحديد: أي من خالص الحديد وجيده.

(٣) اليلق: الأبيض من كل شيء.

(٤) التركة" البيضة بعد أن يخرج منها الفرخ.

(٥) الهوادي: جمع هاد، وهو العنق.

(٦) الثعالب: جمع ثعلبة، وهي طرف الرمح الداخلي في جبة السنان.

(٧) الشوحط والنبع: أشجار تعمل منها القسى.

(٨) سامطين: علقين.

(٩) أنظر صفحة ١٩٦-١٩٧ من رسائل البلغاء الطبعة الثالثة سنة ١٩٤٦.

صلة عبد الحميد باليونان

استعمال الحال على هذا النحو من خصائص اللغة اليونانية، ومن الأسباب التي يتعتمد عليها اليونان في تحديد معانيهم. وكنت أود لو استطعت أن أعرض عليكم نماذج من النثر اليوناني، ولكن الأمر أيسر من هذا، فيكفي أن تقرءوا كاتبًا فرنسيًا متأثرًا باليونانية، حتى كانت كتابته أشبه بترجمة يونانية، وهو أناتول فرانس، ذلك مع أنه أكبر الكتاب الفرنسيين، وأناتول فرانس يستعمل الحال استعمالا كثيرًا جدًا ليدقق في معانيه ويوضحها، ويعطيها الصفات التي يحتاج إليها وبتجميل كلامه أيضًا. وكل ما بين أناتول فرانس واليونان، أن أناتول فرانس لم يتأثر باليونانية وحدها. بل باللاتينية أيضًا، فهو يستعمل الحال مثلهم، غير أنه كان يقدمها أحيانًا ويؤخرها أحيانًا على نحو ما كان اللاتينيون يفعلون.

هذه الظاهرة عند عبد الحميد تقوي عندي أنه كان شديد الاتصال باليونانية؛ ذلك لأن مدارس الأدب اليوناني كانت منبثة في الشرق كله، في الإسكندرية وغزة وأنطاكية والشام والجزيرة، وظلت كذلك حتى العصر العباسي، ولكنها انحصرت في الأديرة، حتى ذهب أمرها في القرنين الثالث والرابع للهجرة.

تلخيص رسالته إلى ولي العهد

فليس غريبًا أن يكون عبد الحميد قد أتصل باليونان في مدارسهم بالجزيرة والشام، وتعلم اليونانية وأحسنها. يقوى هذا في نفس الرسالة التي كتبها إلى ولي العهد، والتي تتناول معاني يظهر فيها تأثير الثقافة اليونانية، والرسالة تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: نصح من الخليفة لابنه يمس أخلاقه وسيرته الخاصة، والعلاقة التي يجب أن تكون بينه وبين جلسائه من القواد والموظفين. والأخلاق التي ينصح بها عبد الحميد أخلاق ممتزجة، فيها أخلاق عربية ظاهر منها تأثير الإسلام، وفيها أخلاق يظهر أنها من نتائج بحث فلاسفة اليونان في العصور المتأخرة أيام الإسكندريين.

ثم إذا فرغ من هذا القسم أنتقل إلى نصيحة وليّ العهد فيما ينبغي أن يتخذه في تنظيم الجيش ومحاربة العدو. وهو أشبه برسالة في فن الحرب وتنظيم الجيش. وهذا النحو من الرسائل كان شائعًا في هذا العصر اليوناني الروماني. وبعضه ترجم للعرب.

وعندي في هذه الرسالة نص بسيط، يدلني على أن عبد الحميد كان في هذه الرسالة متأثرًا لا باليونانية وحدها، بل بما كان مألوفًا عند اليونان، فهو يقول في نصحه لولي العهد: "ثم

ولِّ على كل مائة رجل منهم رجلا من أهل خاصتك وثقافتك ونصائحك [1]، وتقدم إليه في ضبطهم" [2].

ونحن نعلم أن الوحدات التي كان يتكون منها الجيش البيزنطي كانت وحدتين: اللجيو، ويتكون من ستة آلاف رجل. ثم السنتربو، وعدده مائة رجل، ورئي المائة هو السنتريون.

فنظام الجيش هذا ما اشك في أنه متأثر فيه برسائل الحرب عند اليونان، ثم رؤية الجيوش اليونانية التي كان العرب يحاربونها دائمًا، ولا سيما أيام مروان.

من خصائص النثر عند عبد الحميد

ومن خصائص عبد الحميد أنه يقسم كلامه إلى فصول، فكل رسالة من رسائله تنقسم إلى أجزاء، يؤدي في كل جزء فكرة ومعنى. وهو لا ينتقل من فكرة إلى فكرة إلا إذا استطاع أن يستريح ويتنفس.

فأنتم إذا قرأتم فقرة يمكنكم أن تقفوا وتستريحوا عند آخرها، وأن تطووا الكتاب يومًا أو أكثر، ثم تعودوا إلى القراءة، دون أن تشعروا بانقطاع المعنى. هذا النوع من تقسيم الكلام نوع يوناني أيضًا، من خصائص النثر اليوناني القديم.

لا أريد أن أطيل في الكلام عن عبد الحميد، فأنا شديد الحرص على أن أصل إلى ابن المقفع.

عود إلى ابن المقفع

وابن المقفع فارسي من غير شك، وكان أبوه من عمال الحجاج على الخراج، وكان مجوسيًا. وظل ابن المقفع مجوسيًا إلى أول الدولة العباسية، وكان قد أتقن العربية وتثقف بثقافتها. ولا شك أن حظه كان عظيمًا من الثقافة اليونانية، فهو أول من ترجم كثيرًا من كتب أرسطو في المنطق والجدل والقياس والمقولات.

فكان إذا عظيم الحظ من الثقافة العربية واليونانية والفارسية.

---

(١) لعلها: "ونصائحك.

(٢) رسائل البلغاء ص ٢٠٧.

وكان في عصر الأموي يشتغل بالكتابة: كتب لداود بن عمر بن هُبيرة. ثم اتصل بعيسى بن علي عم المنصور، وكتب له إلى أن مات.

حول مقتله

وابن المقفع اسلم في أيام العباسيين، ولكن إسلامه لم يكن فيما يظهر صحيحًا ولا خالصًا لله؛ فقد كتب في الزندقة كتبًا كثيرة اضطر بعض المسلمين إلى أن يرد عليها في أيام المأمون. ويقولون إن الزندقة هي التي قتلت ابن المقفع. ويقولون بل قتله عهد كتبه لعبد الله بن عليّ أحرج صدر المنصور، إذ ألزم الخليفة إن رجع أن تكون نساؤه طوالق ورقيقه حرًا، إلى غير ذلك. فغضب المنصور، وأغرى والي البصرة سفيان برن حبيب بن المهلب بقتله فقتله.

وكان قتله شنيعًا؛ فيقال إنه ذهب إلى ديوان الحكومة في البصرة، واستأذن سفيان فأدخله في مقصورة، وإذا في هذه المقصورة تنُّور. وقال له: والله الأقلنك قتلة يسير يذكرها الركبان؛ وأخذ يقطع أجزاءه قطعة قطعة ويضعها في النار، وهو يراها تحترق حتى مات!

أما أنا فأرجح جدًا أن الذي قتل ابن المقفع ليست الزندقة، ولم يقتله تشدده في الأمان الذ١ي كتبه لعبد الله بن عليّ؛ لأنه يوشك أن يكون أسطورة ليس لدينا منها نص. ولكن لابن المقفع رسالة أخشى أن تكون هي التي قتلته، لأنها توشك أن تكون برنامج ثورة، وهي موجهة إلى المنصور، لأن فيها ذكرًا لإبي العباس السفاح إذ يقول فيها: "وقد كان أبو العباس رحمه الله". ونحن نعلم أن ابن المقفع مات أيام المنصور، ونحن نعلم أنه كان كاتبًا لعيسى أخي عبد الله بن علي الذي ثار على المنصور، وكلفه ضروبًا من المشقة. هذه الرسالة تسمى "رسالة الصحابة" وأستميحكم الإذن في تلخيصها.

تلخيص لرسالة الصحابة لابن المقفع

بدأ ابن المقفع رسالته هذه بمدح المنصور، وتفضيله على الأمويين. ثم مدح منه أنه قليل الإعجاب بنفسه، لا يستنكر أن يسأل. ثم انتقل إلى أن استعداد أمير المؤمنين هذا يشجع المشيرين أن يشيروا عليه؛ فأشار عليه في أمر الجند في خراسان، وطلب إليه أن يعني بهذا الجند عناية خاصة، فيضمن لهم أرزاقهم، ويضمن لهم المواقيت. ويكتب لهم قانونًا يعصمهم من جور العمال والحكام، ويضمن لهم حياة هادئة.

ثم انتقل إلى أهل العراق فأوصى بهم أيمر المؤمنين خيرًا، وأن يعتمد عليهم في أمور الدولة ويدافع عنهم، لأنهم ظلموا أيام بني أمية.

ثم انتقل من هذا إلى أن الأحكام الفقهية كثر الاضطراب والتناقض فيها، حتى إن الحادثة الواحدة يحكم فيها بقضاءين متناقضين، ويحتج الفقهاء لهذه الآراء المختلفة. وطلب إلى الخليفة أن ترفع إليه هذه المسائل؛ ليكون له رأيًا واحدًا فيها، ويصدر كتابًا يلزمه الفقهاء على اختلافهم، فلا يضطرب القضاء.

وقال: إن هذا الأمر إذا كان، صلحت عليه أحوال الأمة، ولا سيما إذا اتبع الخلفاء سيرتهم، فأصدر كل إمام عند توليه الحكم قانونًا يلزمه القضاة.

صلة ابن المقفع بالثقافة اليونانية

هذه الفكرة التي يعني الناس بها الآن لم يبتدعها ابن المقفع، بل هي أثر من آثار الثقافة اليونانية، فقبل ابن المقفع بقرنين نشر "جوستنانوس" قانونه، وهو مجموعة القوانين الرومانية.

ومن عادات الرومان أنه إذا انتخب الـ (Pretoress) القضاة يصدر كل واحد منشورًا بالقواعد التي ينبغي أن يكون عليها حكم القضاة أثناء ولايته.

عود إلى التلخيص

ثم ينتقل إلى السام فيطلب إلى الخليفة أن يحتاط في سياسته، ويطلب إليه أن يشتد عليهم في عدل؛ فيخصص فهم فَيْئهم. وينتقل بعد ذلك إلى آراء تشبه هذه، اكتفى الأخير منها، وهو أنه يطلب إلى أمير المؤمنين أن يعين في الأمصار جماعة من الخاصة، يكون أمرهم تأديب العامة ومراقبة أعمالهم؛ فإن العامة لا تصلح بنفسها إلا إذا وجدت مؤدبين من الخاصة، والخاصة لا تستطيع أن تعيش إلا إذا كان لها من الإمام مؤدب.

وهذه الفكرة تدل على اتصال ابن المقفع بثقافة اليونان، إذ كان ذلك معروفًا شائعًا عند اليونان، وهي وظيفة المحتسب الذي يعهد إليه مراقبة العامة في أنديتهم ومجالسهم وأسواقهم.

من رسائل ابن المقفع

ولابن المقفع غير هذه الرسالة رسائل أخرى اذكر منها: الأدب الكبير، والأدب الصغير. والدب الكبير خليق بالعناية، فهو كتاب منظم له مقدمة وبابان أحدهما في علاقة الإنسان بالسلطان، والثاني في علاقة الإنسان بالإنسان.

أما الباب الأول فظاهرة فيه المعاني الفارسية، لأنه لا يذكر إلا صفات الملوك المستبدين الذين يمكرون ويمكر الناس بهم. فأخلاق ملوك الفرس والشرق يوجه عام ظاهرة في هذا الباب.

والقسم الثاني وهو باب الصديق، ففيه ما يوصي به الفلاسفة من الأمة اليونانية من حسن العلاقة بين الناس، والتأديب في معاملة الأصدقاء.

ومثل هذا الكتاب وكتاب الأدب الصغير واليتيمة كان منتشرًا في العهد اليوناني منذ عصرا الإسكندر، وترجم للعرب منه الكثير أيام العباسيين.

وأبقى أثر حفظ منه هو كتاب كليلة ودمنة الذي لا أحدثكم عنه فكلكم يعرفه، وإذا قرأتموه متفكرين متدبرين، فقد ترون أن لغته العربية تحتاج إلى شيء من العناية أكثر مما فيه الآن.

تفضيل عبد الحميد على ابن المقفع

هذان هما الكاتبان اللذان نستطيع أن نعتبرهما عنوانًا للكتابة الفنية. أما عبد الحميد فلا غبار إلى لغته، وربما لم يوجد كاتب يعدل عبد الحميد فصاحة لفظ، وبلاغة مغنى، واستقامة أسلوب. فهو أسحن من كتب العربية ومرنها، وأقدرها على أن تتناول المعاني المختلفة وتؤديها. وربما كان عبد الحميد الأستاذ المباشر للكتاب المرسلين، وبنوع خاص للجاحظ.

أما ابن المقفع فأمره مختلف؛ وله عبارات من أجود ما تقرأ في العربية، وبنوع خاص في الأدب الكبير، وفي كليلة ودمنة. ولكنه عند ما يتناول المعاني الضيقة التي تحتاج إلى الدقة في التعبير يضعف فيكلف نفسه مشقة، ويكلف اللغة مشقة. فلاحظ الأصمعي أنه كان يلحن فيضيف "أل" إلى كل وبعض. وأخذ عليه الجاحظ أنه لم يكن يحسن لك ما يحاوله من الفنون.

وأنا أستأذنكم لحظات أعرض عليكم فيها أمثلة من لغة ابن المقفع المضطربة لا الجيدة. وإنما كان ابن المقفع كما قلت مستشرقًا كغيره من المستشرقين، يحسن اللغة العربية فهمًا، وربما أعياه الأداء فيها.

قطعة من كتاب الصحابة

الذي ينصح فيه للمنصور

"وفي الذي قد عرفنا من طريقة أمير المؤمنين ما يُشجع ذا الرأي على مُبادرته بالخبر فيما ظن أنه لم يُبلغه إياه غيره. وبالتذكير بما قد انتهى إليه. ولا يزيد صاحب الرأي على أن يكون مخبرًا أو مذكرًا، وكل عند أمير المؤمنين مقبول إن شاء الله مع أن مما يزيد ذوي الألباب نشاطًا إلى إعمال الرأي فيما يصلح الله به الأمة في يومها أو غابر دهرها، الذي أصبحوا قد طمعوا فيه، ولعل ذلك يكون على يدي أمير المؤمنين" (١).

قطع من كتاب الأدب الكبير

في السلامة

١ – "إن أردت السلامة فأشعر قلبت الهيبة للأمور، من غير أن تظهر للناس منك الهيبة، فتفطنهم لنفسك وتُجرئهم عليك، ويدعو ذلك إليك منهم كل ما تهاب فأشعب (٢) لمداراة ذلك من كتمان المهابة وإظهار الجراءة والتهاون، طائفة من رأيك. وإن ابتُليت بمجازاة عدو فخالف هذه الطريقة التي وصفت لك" (٣).

في الحث على الجد

٢ – "إذا تراكمت الأعمال عليك فلا تلتمس الروح في مُدافعتها بالروغان منها؛ فإنه لا راحة لك إلا في إصدارها، وإن الصبر عليها يخففها، وإن الضجر منها هو يُراكمها عليك؛ فتعهد من ذلك في نفسك خصلة قد رأيتها تعتري بعض أصحاب الأعمال؛ وذلك أن الرجل يكون في أمر من أموره، فيرد عليه شُغل آخر، ويأتيه شاغل من الناس يكره تأخيره فيذكر ذلك بنفسه تكديرًا يفسد ما كان فيه، وما ورد عليه، حتى لا يُحكم واحدًا منهما، فإن تورد عليك مثل ذلك، فيكن معكم رأيك الذي تختار به الأمور، ثم اختر أولى

---

(١) رسائل البلغاء ١١٨.

(٢) أشعب: أجمع.

(٣) المرجع نفسه ص ٨٧.